الفتوح

فى سبع سنين قصار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم. .

فتقوضت فى الشرق دولة الأكاسرة، وتداعت فى الشمال والغرب دولة القياصرة، وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومصر وإفريقية الشمالية، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه. عجيبة من أعظم عجائب التاريخ.

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون فى تعليلها كل يوم بعلل جديدة، ويفيضون فى شرح السوابق واللواحق على النحو الذى يفسر العجب بالمألوف، ويرد الدهشة إلى قرار البحث والتدليل.

وهو جهد لا تعرض له فى هذا الكتاب، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه.

إنما يعنينا منه واحد هو تقدير عمل خالد، وتقدير الكفاية التى تضطلع بذلك العمل، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقى التاريخ متشعب اللسان فى استقصار علل الهزائم التى نزلت بالفرس والروم.

فالأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهزيمة - كائنة ما كانت - ليست هى الأسباب التى قضت العرب بقيا دولة وانتشار عقيدة، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء.

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى، ولم تكن المسألة فى لبابها كفاحا بين الأجناس والعناصر بها لها من المزايا وما فيها من العيوب.

فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون إليهما نظرة الإكبار والمهابة، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة

المسلمين عددا وأمضى سلاحا، وأقرب إلى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين إليها من جنوب الجزيرة العربية.

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر فى العدد والسلاح، وأغنى بالخيل والإبل والأموال.

فهى نصرة عقيدة لا مراء.

وينبغى أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها إلى جانب واحد..

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو فى وقت واحد سبب ضياعها، وهو حجة العقيدة التى تخلقها وتنتصر عليها فى ساحة النزاع إذ كان أدعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها.

فإذا قيل إن العقيدة الجديدة فقد انتصرت لتداعى[1] النظم التى اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية، وأنها علاج عالمى مطلوب جاء فى الأوان.

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول.

أفكل مناضل متذرع متذرع بالعقيدة فى تلك الآونة تنصار؟ ينبغى أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة معينا عن كل تعليل..

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها وقد أفلح أناس وأخفق آخرون.

---

(١) تداعى النظم: تهاويها وانحلالها.

فانهزم عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد فى اليمامة . .

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه فى وقت واحد، فسار خالد من نصر إلى نصر ومن توفيق إلى توفيق. ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة في دومة الجندل . .

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد إلى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه إلى مرج الصفر فأوغل وراءهم، ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التى أرسلها إليه تباعا بقيادة عكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميرى، فأحدقت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به من ورائه، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده فى أوقاتها لقضوا عليه . .

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم إليها فى تلك الآونة ولا العقيدة المنشئة بمعينة عن فضل رجالها وحماتها، وكفاية سواسها وقادتها . .

فهى عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون، وكان خالد بن الوليد فى طليعة هؤلاء الحماة.

سبقه اسمه إلى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه، وكانت هذه أول مزية لاختياره أول فضل يحسب له فى ميزانه، ويضاف إلى قيادته، ويعمل عمله فى نفوس أعدائه كما يعمل عمله فى نفوس أتباعه . .

قال صاحب دومة الجندل حين سمع بمسيره إليه. "أنا أعلم الناس بخالد. لا أحدا طائرًا منه[1]، ولا أصمد فى حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه. فأطيعونى وصالحوا القوم . . "

---

(١) أيمن طائرا: أكثر بركة واسعد قالا.

وكان الرجل من العرب يعيش فى الشام ويهجر موطنه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامة[1] والدورب، فما هو إلا أن ينضوى إليه حتى يوقن بيمن طائره، ويسرع إلى طاعة أمره، بأنه لا يأمر الأمر إلا وهو قادر على إنجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمرد:

إذا قال سيف الله كروا عليهم   كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة، إن كانت القصة من توليد الخيال.. قيل إن قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له فى أكبر وقائع الشام وسأله: أحق أن الله أنزل على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمنهم؟

قال خالد: لا..

قال: فبم سميت سيف الله؟

قال: تابعناه. فقال أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله. فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

وكل هذا شبيه بأن يكون.

فإن لم يكن نبأ خالد قد وصل إلى كل عدو من أعدائه فالذى لا ريب فيه أن أتباعه كانوا على علم بنبئه فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه، وكانوا يطمئنون إليه فيعلمون معه عمل المطمئن إلى نجاح سعيه، وهذا هو فضل القيادة الصالحة فى نفوس الأتباع.

خرج خالد وزملاءه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبى عليه السلام بسنة واحدة، وبعد حروب طالت فى الجزيرة العربية عدة سنين فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفهما كان السبب وكانت البيئة

---

(١) المهامة: جمع مهمة، وهى المفازة البعيدة والبلد المقفر.

لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم في تلك الأعوام: فتن وفتن، ونبى مات وملك قتل وقيصر شاخ. فهؤلاء فى العلة سواء.

لكن حركة العرب حركة إنشاء ونماء.

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال

وكذلك جسم الهرم الذاهب، ولكن شتان ما بين اضطراب واضطراب.

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد إلى تخومها من ناحية السواد[1].

وكانت علل مثلها - وإن كانت أخف منها - قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبقاء. وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين:

يقول شراح الحضارات إن الحضارة تبتدئ بمعنى روحى قليل المظهر، ثم تنتهى إلى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقيه من المعانى الروحية..

وهذه هى الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامها بالدعوة الإسلامية فى نهضتها الأولى.

ففى بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور "زرا دشنت" مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرنا، فرث الصالح من مذهبه[2] وازداد الطالح سوءا[3] على سوء.

وخلف فى بيت الملك امرأة ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء فشغلوا بالنزاع

(١) السوادى: سواد المدينة: ما حولها من القرى والريف، ومنه (سواد العراق، أى ما بين البصرة والكونة وما حولهما من القرى والدسائر.

(٢) رث: من رث الثوب، إذا أدركه البلى.   (٣) الطالح: السيئ.

بينهم واسقطوا هيبتهم فى بلاهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة فى فتن وبيلة وخيمة، وترف أوبل وأوخم. وما برحوا فى طغيانهم وتهافتهم حتى ولى الملك أردشير، فرأب صدعه[1]، وأوشك أن يعيده إلى سابق مده، وتركه فى القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس إلى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء.

ثم نكس النكسة الأخيرة، وشاع فيه الفساد علوا وسفلا قبيل ظهور الدعوة الإسلامية. وكان الملك المعاصر للنبى عليه السلام كسرى أبرويز، فثار به ابنه شيرويه، فقتله ونكل بذوى قرباه، وأعقب طفلا صغيراً فلم يلبث أن قال وتولى بعد قائد الجيش شهر يزار، فنفس عليه القواد[2] والعظماء منزلته المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى أبروير، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت، وخلفها فتى من بنى عمومتها الأبعدين، ثم قتل وخلفته بنت أخرى لكسرى أبرويز فقتل، وقتل من بعدها، إلى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهويار والدولة ترتج من فرط الإعياء.

ومنيت[3] فى أيامها الأخيرة بضربة قوية فى حروبها الخارجية: وهى غلبة الروم عليها، وانتزاع مصر والشام مها، ورد حدودها إلى دجلة والفرات بعد أن طلعت على حدود آسيا الصغرى، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة فى القوة والضخامة، ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الإسلامية: وتلك هى ضربة الهزيمة "بذى قار[4]" التى تقدم وصفها فى أول هذا الكتاب. فإن هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيبة، ولاسيما العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد، ومنهم جند خالد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس فى العراق..

---

(١) رأب صدعه: أصلحه بعد تصدع.

(٢) نفس عليه منزلته: حسده ولم يره أهلا لها.

(٣) منيت: ابتليت. (٤) بذى قار: أرجع إلى ص١٠.

وساءت من جراء ذلك كله شئون الأمة فى الديار الفارسية، فتهالك العلية[1] على المظاهر وانغمسوا فى الشرف، واستكثروا من النفائس والأموال، وشغلوا عن سواد الأمة[2] فشاع بينهم الفقر والضنك والتذمر وبعض الحكام، ولم يعلموا فيهم هم مسوقون، وعلى أى شىء يقاتلون ويتفانون. وهى حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة نهر الأركان والجدران.

ومن أعجب العجب أن بفطن رجل كالمعيرة بن شعب لدلالة هذه الحال، وهى معدودة فى عصرنا من دروس وعلوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل إليها الباحث إلا بعد مقارنة وإطلاع واسع مستفيض، ولكنه العجب الذى يفسر لنا ما هو أعجب منه وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوى الحنكة والنظر البعيد، وأنهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات[3].

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فجلس معه على سريره، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوى "المغرور" واجتذبوه من مكانه على السرير فى عنف شديد. فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد عن أن قال: لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام[4] ولا أرى أسفه منكم. إنا معشر العرب لا يستبعد بعضنا بعضا، فظننت أنكم منكم تواسون قومكم كما تتواسى - أى تتساوى - فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب[5] بعض. إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم

(١) العلية: سادة القوم وأشرافهم. (٢) سواد الأمة: عامة الشعب.

(٣) الشارات: جمع شارة وهى اللباس والهيئة، ويراد بها هنا لباس الأبهة والقلائل والنياشين. (٤) الأحلام: العقول.

(٥) أرباب: جمع رب، يعنى أن بعضهم سادة وبعضهم عبيد.

ولا يصنعه أحد. وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى... اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول؟

كلمات من ذهب...

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال فى جوابه: "واليوم علمنا أنكم غالبون، وأن أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذى قوامه[١] من هذه السيرة وهذه العقول".

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الإقفار فى أظلم ظلمات الجهالة والإدبار، فقد وزن "يزدجرد" شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم: "إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب[٢] أوفى على جبل تأولى إليه الطير بالليل، فتبيت فى صفحه فى أوكارها. فلما أصبحت تجلت[٣] الطير فأبصرته يرقبها، فإن شذ منهما شىء اختطفه. فلو نهضت نهضة واحدة ردته، وأشد شىء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً. وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت، فلهذا مثلهم ومثل الأعاجم".

وصف صادق من جملة أطرافه.

وعلامة من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدى العارفين به إلى رأى متفق عليه، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج إذا شارف الجسم الفناء[٤]. ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب، فافترقا مختلفين.

وكما بقيت فى أهل فارس يومذاك مسكة من حلوم[٥] بقيت لهم كذلك

---

(١) قوامه: عماده وأساسه.

(٢) العقاب: طائر من كواسر الطير، والمشهور أن لفظه مؤقت ذكرا كان أم أنثى.

(٣) تجلت: انكشفت. (٤) شارف الفناء. أشرف على الهلاك.

(٥) مسكة من حلوم: السكة (بضم الميم) الأثر والبقية، والحلوم: العقول.

مسكة من مرءوة الفرسان، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة.

وهذه المسكة شرف للقادر، ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل، كأنها الوثبة التى تعجل بالهلاك إن وثبها المريض الهزيل، وإنها فى الأقوياء لمعوان على المجد والطموح.

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقدمون على مباراة فى حلقة صراع، ينظرون عدوهم حتى يصل إليهم كما ينظر المصارع نداه حتى يأخذ بعضديه فى أمان.

ففى وقعة الجسر[1] أقبل بهمن جاذويه ومع راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان، وبين يديه جيش يربو المسلمين مرات. فأرسل إلى أبى عبيد قائد المسلمين يقول له: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تخلوا بيننا وبينه[2]. فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه، والفرس ينتظرون.

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال، وحقيقته أنه صراع حياة وموت بين أمتين، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين فى ملهاة.

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت فى حال لا تفضل حال جارتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية، ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث من جزاء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانية الشرقية، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة

---

(١) وقعة الجسر: وقعة بين العرب والفرس فى السنة الثالثة عشرة للهجوم، استخدم فيها الفرس الفيلة، وهزم فيها العرب وكانوا تحت قيادة المثنى بن حارثة وأبى عبيد بن مسعود.

(٢) تخلوا بيننا وبينه: تتركونا نعبره، يقال (خلى بينهما) أى تركهما مجتمعين.

والوثنية، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب إلى الإسلام منهم إلى المسيحية.

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له فى نفوس العلية وقواد الجيش. وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذى حضر عهد النبى عليه السلام، ولكنه شقى بالفتن فى أخريات عهده، وركبته الوساوس فى شيخوخته، ولاسيما بعد بنائه ببنت أخته[1]، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء.

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين.. لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل إنهم كانوا يفتكون فى المذبحة الواحد بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال.

وعاشت فى ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذام وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة فى الحيرة. ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين، وهيأ نفوس العرب لقبول الدعو جديدة ولاسيما الدعوة التى تأتيهم من أبناء جنسهم فى الجزيرة العربية، وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم. واتفق فى تلك الفترة انقطاع الهبات التى ان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصر الدولة وولاتها، فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها.

ويؤخذ من رسالة فيجيتيوس "Vegetius" فى علم الحرب أن نظام الجيش الرومانى فى الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة

---

(١) بعد بنائه ببنت أخته: بعد أن تزوجها.

المحمدية بأكثر من قرنين. ففى هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذى يعدونه إمام أساتذة الحرب بين الغربيين إن "اللجيون"(١) قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وفقا على الكفاية والخدمة الطويلة، وإن عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه.

وقد أتيحت للرعية فى الشام والبقاء فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التى دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية. فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها، ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها، ويسكرون ويعربدون، فلا يأمنهم أحد مطموع فى ماله أو غير مطموع منه فى شىء على الإطلاق، وإنما هى العربدة والضراوة والاستحقاق. ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم، ويقيمون فى المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية إلى أهلها لأنهم إنما أخذوه لحمايتهم وحمايتها. فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة إلى التراخى فى الدفاع عن الحكم القديم، وتمنى الغلبة للحكم الجديد. وقد تتجاوز ذلك إلى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء.

بل ربما تجاوزت كل هذا إلى إزعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم. . فمما يروى فى هذا المعنى وهو كثير أن أخا القيصر وقادة سأل رجلا من قضاعة عن شأن المسلمين بعدما أقام بينهم أياما فقال ل: "هم رهبان بالليل، فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى

(١) اللجيون: اسم كان يطلق فى روما القديمة على فرقة من الجيش قوامها بضعة آلاف من المشاة ويضع مئات من المدفعيين.

رجموه إقامة للحد: ". فقال القائد: "لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها"

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطئوا فلم يضربوا ضربتهم فى موضعها، فيتسع لهم الوقت لإصلاح الخطأ والرجوع إلى الخليفة لطلب النجدة والمشورة، لأن أعداءهم مشغولون أبداً بنزاع أو فتنة أو ريبة. أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لإصلاح خطأ يخطئونه وكثيرا ما كانوا يخطئون. فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التى تدعو إلى النصر، وعند الآخر كل حقائق الأسباب التى لا تدعو إليه.

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم، وسيف الله بوادى الوبر فى اليمامة لم يطل استقراره فى غمده بعد وقعة عقرباء.

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتداداً للوقعة الأولى بذى قار، أو استئنافا لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة فى تواريخ النزاع بين الأمم، وهى نيف وعشرون سنة.

فالقبائل التى ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التى انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتابع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية فى ذلك الزمان، وكانت تعيش كلها فى ظل تلك الدولة من أيام المناذرة إلى ذوال ملكهم بعد وقعة ذى قار والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والإغارة على دهاقينهم[1] فى تلك الأصقاع كانا من بنى بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر فى وقعة ذى قار، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التى تواليهم على أشد ما يكون: وهما المثنى بن حارثة الشيبانى وسويد بن قطبة العجلى. وكلاهما على ذكر[2] من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم فى

(١) الدهاقين: جمع دهقان (بضم الدال) وهو رئيس الإقليم أو القوى القادر على التصرف، أو صاحب المال والعقار.

(٢) على ذكر: بضم الدال أو كسرها، أى أن الأمر فى باله لا ينساه.

أطراف العراق. وقد صحب المثنى النهر فى غاراته حتى بلغ القطيف وهجر لم يقف له أحد فى طريقه. فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم فى اليمن لدخولهم فى الإسلام فضيا على تردد الخليفة فى أمر البعثة الفارسية، فصحت عزيمته أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات.

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمراً إلا أحكم تدبيره مرحلة مرحلة من أول طريقه إلى منتهاه.

وهكذا كان شأنه فى البعثة الفارسية: فإنه تدب لها قائدين هما خالد بن الوليد، وعياض بن غنم، وأمر خالد أن يتجه إلى الأبله ثغر الهند كما سماها، وأمر عياضا أن يتجه إلى المصيخ بشمال العراق. فأيهما بلغ الجزيرة قبل الآخر كما هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميله، وقال لهما: "إذا اجتمعتما بالحيرة وقد قضضتما مسالح فارس[1] أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما رداء للمسلمين ولصاحبه، وليقتحم الآخر على عدة الله وعدوكم من أهل فارس دارهم"

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى فى وقت واحد ففيها إذكاء[2] المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس فى الدفاع عن بلادهم. وفيها تدبير النجاة سلفا لمن يحتاج إليها من الجيشين، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ فى الطريق للجيشين معا، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين سارا فى طريق واحد.

---

(١) قضضتما مسالح فارس: المسالح: جمع مسلح أو مسلحة، وهو كل موضع يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة. وهو أيضا القوم المسلحون فى ثغر أو مخفر للمحافظة. وقوله (قضضتما): أى فرقتما وكسرتما.

(٢) إذكاء: أشعال.

وكان الصديق وإخوانه يعلمون أن المسألة فى هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست كثرة وهيئة..

فحرص لهاذ على أن يجنب الجيوش الإسلامية مخاوف وألا يكرها أحدا من غير المرتدين على المسير فى جيشهما ما يقبل على الحرب برضا منه ورغبة. ولما نظر خالد إلى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب إلى الخليفة يستمده، فأمده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمى.. فعجب أصحابه وقالوا له: أتمده برجل واحد؟.. قال: نعم!.. لا يهزم جيش فيهم مثل هذا!

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف، وأى كفاية، فإن ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحدب[١] فبلغ جيش المثنى بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف. ولم يتقدم المسلمون خطوة فى ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التى تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين.

ففى الوقعة الأولى دعا القائد الفارسى - هرمز - خالدًا للمبارزة قبل التحام الجيشين، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفردا مشغول بمبارزته، فيراع[٢] الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق إلى وهمه، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين..

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذى دبره هرمز، لولا أنه

---

(١) صوب وحدب: الصوب: الجهة، والحدب: الأرض المرتفعة..

(٢) يراع: يفزع ويخاف.

أخطأ الحساب فى اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد فى مبارزته، فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد، ولكنه صرع فى جولة واحدة، وفوجئ أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالإجهاز على قائدهم، وإذا بالقعقاع أسرع إليهم من لمح البصر، ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب فى قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة. فكانت وقعة اليوم وقعة ترسمت خطاها[1]، وسارت على هداها..

سار خالد إلى العراق فى أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية. وأتم فى سنة واحدة ما أعيى الرومان أن يتمنوه ففى أجيال.

وقد تكتب فى شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها[2] مئات الصفحات، ولكننا لا نتوسع فى ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا فى هذا الكتاب لمقصد واحد، وهو الرجوع بها إلى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه.

وفى هذا حسبنا أن نقول على الإجمال قبل الإشارة إلى وقعاته إنه لقى الفرس وأولياءهم فى خمس عشرة وقعة منها، وإن قوادا من المسلمين أخطأوا فى حروب الردة وحروب الروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبى عبيد وخالد بن سعيد، ولكن خالدا لم يخطئ قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهنبة، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجئ، وكما وصفه عمرو بن العاص: "فى أناة القطاة ووثبة الأسد"[3] فلا يهمل الحيطة لا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم

(١) ترسمت خطاها: سلكت نفس الأسلوب.

(٢) معارضة رواياتها: المقابلة بين الروايات المختلفة للوصول إلى الحقيقة والصواب.

(٣) أناة القطاة: يتأتى القطاه، وهى طائر كاليمامة.

والحيلة، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه فى بعش الساحات لينتقل به إلى المكان الذى هو أصلح لحركاته وأعون له عليه. ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء. فإذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف إلى مكان يغنون فيه، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو[١] على الحاجة الضرورية.. فإن طرأ فى خلال مسيره ما ليس فى الحسبان فمعوله فى هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق[٢] وهو ينقض على فريسته، فلا شعر الفرقة التى أشخصها[٣] إلى مكانها بالحاجة إليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها.

فهى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بها هو لازم فى وقت لزومه، ولم تخذله خصلة من هذا الخصال قط فى ساحات فارس ولا فى ساحات الشام مع اختلاف الميادين واختلاف لأحوال واختلاف الأعداء.

وقد كانت تعبئة خالد فى المسير تشبه التبعة التى جرى عليها العرف فى أيامه، وهى قسمة الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه، وردء يلحق به ليحمى ظهره أو يلبث فى موضع من المواضع كمينًا ينزل إلى الساحة على غير انتظار، لتقوى به سواعد أصحابه، وتنخذل به عزائم أعدائه.. ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة. فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس[٤]، يواجه خصمه أو يدور عليه، ويتراجع أمامه أو يمعن فى الهجوم على كبة[٥] جمعه، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب، حسبما تدور به المعركة فى أثنائها أو توحى به طوالعها قبل ابتدائها.

---

(١) يربو: يزيد. (٢) الباشق: (بفتح الشين) البارى، وهو ضرب من الصقور.

(٣) أشخصها: بعث بها.

(٤) الكراديس: جمع كردوس بمعنى القطعة العظيمة من الخيل، ويقال (كردس القائد خيله) أى جعلها كتيبة منه.

(٥) الكبة: الجماعة من الناس فى تكدس.

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرائق مختلفة، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عدى بن حاتم صاحبه فى حرب بنى أسد، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعا إلى الجنوب الغربى من البصرة الآن، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم، ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدارية بهذه الدروب.

وكتب إلى هرمز قائد الفرس يخيره بين الإسلام والجزية أو الحرب، ويقول له فى ختام كتابه الوجيز: "جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"، ثم عدل إلى "كاظمة" بعد أن كان موعده الأول "الحفير" لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه[1].

وهناك التقى بجيوش الفرس - وعلى رأسهم هرمز - فوقعت بينهم الوقعة التى سبقت الإشارة إليها، وتعرف باسم "ذات السلاسل"، لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات ليثبتوا فى القتال ولا يتأتى لهم الفرار إن أرادوه، ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر صدق العزيمة والطمأنينة إلى النية القوية.

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوته حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها[2]، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون فى "المدائن" عاصمة ملكهم، فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قاريانس يعاونه أميران من بيت أردشير. فأدرك فلول هرمز فى "المدار" وضمتهم إليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستمده[3]. فكان خالد هو الجواب.

---

(١) أنظر الخريطة للتعرف على أسماء الأماكن والمواقع.

(٢) احتثاث الملاحقة: الملاحقة: المطارد، والاحتثاث: من الحث، أى شدة القلب.

(٣) يستأمره: يطلب أمره، ويستمده: يطلب المدد.

ووصل خالد إلى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عاداتهم قبل بداية القتال، فنهض إليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان، وأراد معقل أن يحمى خالدا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه إلى قتل قارن. وبرز عدى بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين، فظفروا بهم جميعا، ثم اشتبك الفريقان فى ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة، وبلغ بعضهم لعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن(١) لكانت المقتلة أعظم من ذاك، ولم يكد يفلت من الموت أحد.

ورانت(٢) الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس، فخيل إليهم أن فى ولاء العرب سراً لا يدركونه وأحبوا أن يحاربوا آفتهم(٣) بآفة من جنسها، فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين، واشترك هؤلاء فى كثير من الوقائع التى دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار، وضايقوا المسلمين غير قليل فى الوقعتين، التاليتين بالواجلة وأليس.

وكان خالد كعادته فى الحيطة والمبادرة، فاستبقى طائفة من جيشه فى البلاد التى فتحها حماية لظهره واستعداد لمن يجترئ عليها بعد مسيرة. وتقدم إلى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعا، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا فى ساعة الحرج بالجيش الفارسى من ورائه. فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان. وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى(٤). ثم ظهر أحد الكمينين، وأظهر الكمين

---

(١) اللياذ: الاعتصام والالتجاء. (٢) رانت: غلبت وغطت.

(٣) آفتهم: الآفة: العاهة، والمراد بها هنا (المشكلة).

(٤) قاب قوسين أو أدنى: القاب: المقدار. ولا (قاب قوس) كناية عن القرب. وفى القرآن الكريم (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى طول قوسين.

الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول. فتولاهم إعياء اليأس بعد إعياء المصابرة والمجاهدة، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد فى مهربهم.. فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب.

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة "أليس"، وهى أعجب الوقائع فى حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة، وعواقب الرجاء مع الغالب، وعواقب اليأس والقنوط من المغلوب. ولعلها هى الوقعة الحاسمة فى النزاع بين المجوسية والإسلام.

راع الشاهنشاه(١) تلاحق الهزائم على جيوشه، وغاظ العرب الموالين له أن يؤاخذوا فى حماهم، وانفوا أن يهانوا لا يراهم الناس كفاء(٢) لتلك القبائل الواغلة عليهم(٣)، فتلاقوا فى الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهى أليس، وانتظروا هناك حجافل من الفرس وعدوهم أن تربى(٤) فى العدد والعدة على كل جيش نزلوا به إلى الميدان فى المعارك الماضية.

وهنا تتراءى فى الموقف أصبع المقادير..

فإن "يهمن جباذوينه" قائد الفرس الذى أمر الشاهنشاه بالمسير إلى "أليس" أناب عنه قائدا آخر يدعى "جابان" وشخص هو إلى المدائن ليلقى مولاه ويلقب معه الأمر على وجوهه فى مسائل شتى لا غنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة، وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف إلى جيشه الأول، وإلى جموع القبائل العربية عند الفرات. وقال لجابان وهو يودعه: "كفكف نفسك(٥) وجندك عن قتال القوم حتى أحلق بك إلا أن يعجلوك".

---

(١) الشاهنشاه: ملك الملوك (فارسية). (٢) كفاء: جمع كفء وهو النظير والمماثل.

(٣) الواغلة عليهم: الدخيلة عليهم. (٤) تربى: تزيد.

(٥) كفكف نفسك: أصرفها وأبعدها.

وبلغ المدائن فإذا مولاه مريض يجود بنفسه، وليس نظام الوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح والاستقرار والوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يطمأن إليه إذا مات الملك والجيش بعيد، والمتربصون كثر، والشيع فى البلاد أكثر من المتربصين..

فبقى "بهمن" فى المدائن، ووصل جابان إلى "أليس" قبل أن يصل إليها خالد، فألقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام. ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله. فلبثوا على طعامهم لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلوا إلى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالدا يلقى أثقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال فى كل لحظة، ولأنهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر[1] أو ساحات المباراة فى "الألعاب الرياضية" : إنما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين!..

ولكن خالدا ضرب ضربته الأولى فى الجموع العربية فقتل قائدها وأثخن القتل فى صفوفها، وثار الفرس إلى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالد حتى يفرغ من الجموع العربية ويتحول إليهم بين لحظة وأخرى.

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير. وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم. فاشتد الأمر بخالد وثاب إلى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا إن منحه أكتاف[2] أعدائه، "فلا يستبقى منهم أحدا يقدر عليه حتى يجرى نهرهم بدمائهم". وفى هذا النذر بقية من البدوة المخزومية لا تخفى على اللبيب..

---

(١) الصوالج والأكر: لعبة تشبه (الجولف) والصوالج: العصى. الإكرار: جمع أكرة وهى الكرة.

(٢) منحه أكتاف أعدائه: كناية من الأنصار عليهم.

وطال صبر الفرس فنفد.

وتساقطت رءوس العرب الموالين لهم فجزعوا. .

ولاحت خالد لوائح النصر الذى سأله الله، فلم ينس نذره ونادى المسلمين: "الأسر. . الأسر. . لا تقتلوا إلا من امتنع" . . لأنه نذر ليجرين النهر. . فليجر إذن بالدماء وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس ماءه. فلم يجر بالدماء! . . لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض كما قال له أصحابه. فأطلق الماء فسأل بالدم أحمر قانيا ثلاثة أيام.

وحمادى[١] ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة فى تاريخ صدر ا لإسلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك الأيام، وأنه كان يدين بها[٢] أناسا صنعوا بالملل الأخرى مثل ما صنع بهم فى المعركة فى هذه المعركة، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط هذه المعاملة فى حروبهم مع العرب والدولة الرومانية، وأن خالد حسب أن هذه الذبائح قربان إلى الله. . ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب، وهو حسبان يوائم صرامة طبعه، ويحيك فى صدر[٣] رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجلا ممن طالت صبتهم للنبى عليه السلام كأبى عبيدة أو سعد بن أبى وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل إلى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجد فى معركة أليس. فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد[٤] وظفر المسلمون بألوف الأسرى فى معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم، وعاملوهم بحكم الأسرى فى القرآن الكريم. وقد اختلف فقهاء المسلمين في جواز قتل الأسرى من غير مشركى العرب؛ فلم يجزه من أجازه منهم إلا لحسم مادة الفساد، إن خيف ألا تحسم

---

(١) حمادى ما يقال: غاية ما يحمد من القول. (٢) يدين بها أناسا: يجازيهم.

(٣) يحبك فى صدره: يؤثر فيه.

(٢) السواد: يعنى (سواد العراق) وقد سبق شرحه.

بغيـر هذه الذريعة[1]. وقد كـانت مادة الفساد فى أعـقاب الدولة الساسـانية خليقة - ولا نكران - بضربة من أمثال هذه الضربات، فـقد أعيت فيها الحيلة من دعوة وإقناع ومصابرة، وكـانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس ومصابرة، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشـد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى فى تلك المعركة الشعـواء، وهى فى غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار، وتلك فى المعارك التى يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر، ولا يريدان فـيه وقـديما علمنـا من طوارق الحروب والسلم أن الشـر المحض والخيـر المحض فى هذه الدنيا عزيـزان أو مستـحيلان. فـهذه النقمـة الخالدية جاءت على غير المألوف فى حروب صدر الإسلام، ولكنها عجلت بختام عهد مـوبوء كـان لا بد له من ختـام، فـخلعت القـلوب، وصكت الركب[2]، وزلزلت سلطان الطغـاة فى بلاد الفرس بل فى بلاد الروم، وكان من جـرائها أن الأمصـار التى كانت تفزع من حـصار خالد لهـا كانت تلقى بأنفسـها فى أحضان غيره من قادة مصالحة مخافة الفتح عنوة[3] على يد ابن الوليد.

كانت هذه الوقائع الوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها البرد[4] إلى المدينة بأخبار النصر وغنائم الـقتال، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتـبعه ما رواه بنصر جديد. وسـبقت ضربات خالد كل آمان الآملين فى سـرعة الظفر بدولة الأكاسرة. فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنبـاء الظفر ليزفوا بشراها إلى الجزيرة العـربية: "يا مـعشر قـريش.. عدا أسـدكم على الأسد فغـلبه على خراذيله[5].. أعقمت النساء أن يلدان مثل خالد!"

ثم سلمت الحيرة - بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان - فكان لتسليمها

---

(١) الدريعة: الوسيلة.
(٢) صكت الركـب: جعلتها تضطرب.
(٣) عنوة: "بفتح العين" قهرا.
(٤) البرد: جمع بريد.
(٥) خراذيله: الخرائيل: قطع اللحم. والواحدة (خرذولة).

صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح فى بلد من البلدان، لأنها كانت فى عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان.

إلا أن الخليفة الذى عرفناه رجلا حصيف الجرأة، جرئ الحصافة[١]، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين[٢]. وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية فجنح إلى الأناة والتريث، وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض ابن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق. وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أن تخفى. فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار. ثم إن السواد نفسه إقليم حديث العهد بالإسلام لم ترسخ فيه قدمه، ولا يؤمن تركه والتطوح بعده إلى حمى الدولة الفارسية فى غواصمها من وراء النهرين، وقد نمى إليه ولاشك أن فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصحراء إلى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون، وفى الشام أراجيف[٣] عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطئ الفتوح، فإن لم يخرج عياض بن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل، ومل عجلة قد تجر إلى وبال.

ولكن الفرس الكريم الذى يحبس فى الحلبة يعانى من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار. فحز فى طبع خالد جذب العنان، وأقام فى انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه سنة نساء. ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة "المستريحة" بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه

---

(١) حصيف: الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأى.

(٢) اليقين والحيطة: تحدث المؤلف فى كتابه (عبقرية الصديق) ص (١٤) فى إفاضة عما سماه (اليقين والروية) وسماه هنا (اليقين والحيطة) فارجع إليه.

(٣) أراجيف: شائعات وأقاويل.

سجل عمر كامل، لأنه خاض ثماني وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى. وله فى كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور..

وقد عرضت لخالد فى هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل فى الحساب أو تأتى من هنا وثم[1] على غير حسبان. فتصرف فسها جميعا تصرف الرجل الذى خلق للتقلب فى أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب فى الماء، فلا تفجوه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه.

البدوى لا عهد له بسفينة الصحراء - وهى الجمل - لكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس، فاركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطاياه مشقة السير. فلم تنقله السفن إلا قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع، لأن الفرس تسامعوا بمسيره فى النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه، ولو بدوى فوجى بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع فى "حيص بيص"[2] وترك السفن فى قاعها ورجع إلى مطاياه.. ولكنه أبى إلا أن يبلغ بالسفن إلى حيث شاء. فانبعث فى نفر من أصحابه كالبزاة[3] إلى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك فى حراستها وفى انتظار الفن التى ارتفعت براكيبها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير..

وحفروا له فى الأنباء خندقا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون إليه من أعلاه، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه أن يعبر الخندق وأن يفلح فى علاج الحسن إذا وصل إليه. فلم يلبث أمام الخندق كثيرا ولا قليلا بل أمر لتوه بنحر الإبل العجاف[4] وألقى بها فى الخندق فسدته، ودعا جيشه إلى العبور عليها.

---

(١) من هنا وثم: من هنا وهناك. (٢) فى حيص بيص: فى ضيق وشدة.

(٣) البزاة: جمع (بازى) وقد سبق شرحه باسم (الباشق) ضرب من الصقور.

(٤) العجاف: الزيلة.

فأصبح من فى الحصن سجناء فى يديه، وتوسلوا إليه أن يرسلهم فى سبيلهم مجردين من السلاح والمتاع، وهم يحمدون الله على النجاة م يوم كيوم أليس. فأجابهم إلى ما طلبوه.

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى "عين التمر" حشوذا من تغلب وإياد وأصحاب المتنبئة سجاح، ويوهم الفرس أنه ند للعرب لأنه أخبر(١) بهم من غيرهم. فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعئة كاملة. وبصر بعقة حين دنا الموقع فقال لصحبه: اكفونا ما معه فإنى حامل عليه بنفسى.. ثم احتضنه وحمله أسيراً(٢) ولا لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب فى كل قتال. وقد كان خالد يعمد إليه(٣) كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم، فيصيب ما أراد..

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوحيه إله..

فكان إذا لقى العرب سألهم مذكيًا فيهم نخوة العروبة: "ويحكم.. أأنتم عرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعد؟"

وكان يعين الحمية الدينية فى جيوشه بما يغرى النفوس من نعيم الدنيا

---

(١) أخبر: أكثر خبرة (اسم تفضيل).

(٢) احتضنه وحمله أسيرا: يقول المرحوم الشيخ محمد فخر الدين فى كتابه (تاريخ الفتح الإسلامى) معقبا على هذه العبارة: "هكذا يذكر المؤرخون، ومعناه فيما رأى أنهما تبارزا، فتكمن خالد من أن يقضى على مناوراته، ويخيب جميع ضرباته. فلما رأى الموت رأى العين نفسه، فأخذه خالد أسيرا، وبذلك انهزم جمده من غير قتال كما هى العادة"

(٣) يعمد من غير قتال كما هى العادة".

ومتاع الحياة، فأباح الأسلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه، ولا ينتزع منه غنيمة وقعت فى يديه. وقال لهم يوما بعد وقعة المذار: "ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب[1]؟ والله لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأى أن نقارع[2] على هذا الريف حتى نكو أولى به، ونولى الجوع والإقلاع من تولاه ممن قاتل عما أنتم عليه"[3].

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب، فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيلة، وكان يصالح المستسلمين صلح الحيرة نموذجا للعهود من قبيلة، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعنى كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص. قال فى عهد أهل الحيرة: "هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد.. نقباء[4] أهل الحيرة، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به. عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء على أيديهم[5] فى الدنيا، رهبانهم وقسسهم إلا ما كان منهم على غير ذى يد حبيسا تاركا لها. وعلى المنعة، وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم. وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة.. وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة هجرية".

وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعيته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين مع زراع تلك البلاد. فللمرة الأولى فى التاريخ من قبل بابل

---

(١) رفع التراب: إلى هذا الأسلوب. (٢) نقارع: نناضل.

(٣) أثاقل: تثاقل وتراخى، يعنى الذين لم يجاهدوا مثل جهادهم.

(٤) نقباء: جمع نقيب، وهو شاهد القوم ومن يمثلهم.

(٥) فى تاريخ الطبرى (عن أيديهم)، والجزاء (بكسر الجيم) جمع جزية، وهى الضريبة المالية التى كانت تؤخذ من أموال غير المسلمين المستظلين بالراية الإسلامية جزاء حمايتهم. قال تعالى: «حتى يعطوا الجزية عن يد» أى بأنفسهم. وقوله «على غير ذى يد» أى غير قادر على إعطاء الجزية لأنه مترهب منقطع عن الدنيا.

ونينوى رأى فلاحو السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم - أو مستغليهم - ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم، ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان. وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه - مسلمين وغير مسلمين - أنه تكفل بالعبد إذا تحرر، وبالغنى إذا افتقر، وبالعائل[1] إذا نقطع عائلوه. وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد فى كتاب خالد. قال: "إنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا: لا حادة لنا بحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية. فإنى نظرت فى عهدتهم فوجدت زمانة[2] ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف، فصالحونى على ستين ألفا، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل: ألا يخافوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوهم على عورات[3] المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، أشد ما أخذه على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة، وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم[4]، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا، وجعلت لهم أيما[5] شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدون عليه، طرحت جزيته، وعيل[6] من بيت مال المسلمين وعياله[7]، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس

---

(١) العائل: الفقير الذى يعوله غيره، قال تعالى: «ووجدك عائلا فأغنى».

(٢) الزمانة: المرض المزمن.

(٣) عورات المسلمين: واضع الضعف التى يمكن أن يهاجمهم منها العدو.

(٤) المنع: الحماية. (٥) أيما شيخ: أى شيخ.

(٦) عيل: تكفل وأعين. (٧) عياله: أهل بيته الذين يعولهم.

على المسلمين النفقة على عيالهم. وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأغبى ما يقدر عليهم فى غير وكس[1] ولا تعجيل، ودفع ثمنه إلى صاحبه. ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب[2]، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم. وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب[3]. وشرطت عليهم جباية منهم، فإن طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به، ومئونة القواد من بيت مال المسلمين"

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب، وتلك السطوة من جانب آخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية فى السواد وفى الديار الفارسية، فنظرت الدهماء إلى الحرب كأنها حرب على الرعاة الفارسية، فنظرت الدهماء إلى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل، فلا هى تغنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة، بل هم بهذه العواقب ينعمون وإليها يتشوفون.

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار فى العراق وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معا، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية، عدا ما فيها من الحوادث التى هى أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة فى عهد إقبالها وتأتيه الأدمة فى عهد إدبارها. فهو ضربة موت من ناحية، وهو من الناحية الأخرى كالضربة التى تتخذ عزيمة المضروب وتردة التوازن إليه.

الفراض فى أعلى العراض بين مسالح الفرس والروم، يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظروا متقابلين، وقد هبط عليها خالد وثبة من وثباته فتألب

---

(١) وكس: نقص وغبن.

(٢) أى: من حقهم أن يلبسوا ما يريدون من الزى إلا زى الحرب.

(٣) أى: فإن جاء بعذر قبل منه، وإن لم يكن له عذر عوقب.. الخ.

عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم، وكان ويشكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثته من المتنازعين عليه. وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيد[1]: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيد بل قال لهم: اعبروا أنتم إن شئتم. وتركهم حتى يعبروا ليحضرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعا، ويضيقوا عليهم مسالكهم، ثم يحصدوهم حصدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالقاتلين.

على أنه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد "طهر" جوف الصحراء من جموع الأعراب التي تكونت[2] إلى دومة الجندل وعوقت عندها زميله "عياضا" قرابة عاما. فلما ترامت أنباء فتوحه إلى عياض كتب إليه يستشيره ويستنجده. فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب، وكتب إليه يقول:

لبث قليلا تأتك الحلائب   يحملن آساداً عليها القاشب[3]

كتائب تتبعها كتائب

وكانت تفصله من دومه الجندل مسيرة أسبوعين، فقطعها هو في أقل من عشرة أيام، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه، وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء، فجعل القوم جميعا بينه وبين عياض، وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش في نفسه من نخوة المنافسة وما جاش

(١) هو ابن عبيد بن مسعود، ويشير إلى (وقعة الجبر) في سنة ١٣هـ انظر هامش ص١٧٠.

(٢) تكونت: فجمعت.

(٣) الحلائب: الجماعات تتجمع للنصرة. والقاشب: السيف اللامع القاطع. و(لبث) أي: تمهل.

فى نفوسهم من الوحل والحيزة. وتدافع المنهزمون إلى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد إليه وانتزعه، وحال بين النازلين فى الحصن ومن حوله. ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء. ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودى بين ربيعة، استباها خالد لنفسه وقيل إنه اشتراها، ثم بنى بها[1] وأقام معها فى دومة الجندل أيام مقامه فيها.

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم، فأمعن القتل وجعلهم نكالا[2] لغيرهم. ثن قفل إلى العراق وهو مطمئن إلى غزوة الفراض بأعلى الفرات. فغزاها وفرغ منها كما تقدم. وبقيت له فى العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع، فلم يلبث أن قضاها..

بقى على موسم الحج أسبوعان، وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات التى أمده الله فيها بنصره وعونه.

أيفوته قضاء الشكر فى هذا الموسم وأداء الفريضة فى موعدها؟ ولم؟ الخوف من الأعداء. ألعائق من بعد الشقة ووعرة الطريق؟ ألعذر من الأعذار التى يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عنها.. ففى خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز وادى الفريضة وعاد إلى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين إلا أقرب خاصة المقربين، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج فى ذلك العام.

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التى تنم على فرط الثقة بنفسه ولا تنم على شىء غير ذلك، ولكنها فى الواقع دلت على نفسه بغيره كما دلت على ثقته بنفسه. فقد علم أن معه بالجيش من

---

(١) بنى بها: تزوجها.

(٢) نكالا لغيرهم: عظة وعبرة.

فيـه غنى وكفاية إذا جد فى غـيبتـه طارق داهم أو خطب حازب[١]. وكفى بالمثنى رائدة المقدام، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم.

علم الخليـفة بمغـامـرته هذه فجـاءه منه مـلام، وإعجـاب، وتكليف، ووصاة: أمره بحـرب الدولة الرومانية بعد هذا الفـوز الذى أصابه فى حروب الدولة الفارسيـة، وأن يسارع إلى مرضاة الله وقتـال أعداء الله، ويكون كمن يجـاهد فى الله حق جـهاد وقـال له": "سـر حـتى تأتى جمـوع المسلمـين باليرمـوك، فإنهم قد شجـو وأشجوا[٢]. وإياك أن تعود إلى مثـل ما فعلت، فإنه لم يشج الجـموع من الناس بعون الله شـجيك[٣]، ولن ينزع الشجا من الناس نزعك[٤] فليهنك[٥] أبا سليمان النية والحظوة[٦]. فأتمم يتمم الله لك. ولا يدخلنك عجب فتخسـر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل[٧] فإن الله له المن ولى الجزاء"[٨].

وكتب إلى عبيدة فى الشام يخبـره بمقدام خالد إليه، ويقول له فى كلام

---

(١) الطارق الداهم: الأمر المفاجئ، والخاطب الحازب: الشديد.

(٢) شجـوا وأشجـوا: يقال (شـجى بالهم) بكسـر الجيم وفـتح الياء، إذا لم يجـد من الهم مخرجا، وكذلك إذا اهتم وحزن. والمراد أن جيش المسـلمين باليرموك قلق مهموم، وهذا بسبب اللهم والقلق. ويجوز: أنهم شـجوا بأنفسـهم، وأشـجوا غـيرهم (أى جـيوش الروم).

(٣) لم يثج الجموع: الرواية فى الطبـرى "لم يشج الجموع من الناس بعون من يقهـر الجموع أحد مثل ما تقهرها أنت بعون الله.

(٤) لن ينزع الشجا.. الخ: الشجا: مـا يعترض فى الحلق من عظمة أو نحوها، وذلك كناية عن الهم والقلق، والمراد أنه ليس هناك أحد يقر على نزع الشجا مثل قدرتك على نزعه.

(٥) فليهنك: هنيئا لك.

(٦) النية والحظوة: فى بعض الروايات (النعمة)، والحظوة: المكانة.

(٧) تدل: (بضم التاء وكسـر الدال): من الادلال، وهو التفاخر بالأعمال والمباهاة.

(٨) فى الطبرى (فإن الله له المن وهو ولى الجزاء).

صريح: "سلام الله عليك. أما بعد.. فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع. فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه، ولكننى ظننت أن له فطنه فى الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرا والسلام".

فأرسل خالد إلى أبى عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه: "أتانى كتاب خليفة الله يأمرنى بالسير إلى الشام، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها. والله ما طلبت ذاك قط ولا أردته إذ وليته. فأنت على حالك الذى كنت عليه، لا نعصيك ولا نخالفك، ولا نقطع دونك أمرا. فأنت سيد المسلمين لا تنكر فضلك، ولا نستغنى عن رأيك".

وأول خاطر سبق إلى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس إلى حرب الروم أنه عمل من أعمال "الأعيسر" كما يسميه، ويعنى به عمر بن الخطاب، وإنه فيه شركاه من أعلام الصحابة بفتح فارس، فأرسله إلى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين.

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لأنه يتوقع شيئا من صوب عمر[1]، ولكنه لا يخطر على بال غيره. إذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدى كبار القواد من أجلا الصحابة. فهذا مزيد من يأباه عليه. وإنما اختار الخليفة خالدا لأن العراق كانت فى هداه من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة، وكان فى جيش المسلمين وقواده بالعرق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد، ولأن خالدا كان أقرب مدد إلى الشام، ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة[2] تضاف إلى قواتهم فى حرب الرومان.. فاختاره الخليفة وهو يقول: "لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

---

(١) من صوب عمر: من ناحيته. (٢) قوة فاضلة: زائدة.

وليس من عـادة خـالد أن يضيع وقـتـا قل أو كثـر إذا نيط به أمـر من الأمور. فلما تدب للجهاد بالشام نظر فإذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة إلى ستمائة مـيل على حـسب الطرق التى يسلكها، وهى أربع يـختار منـها أصلحها لإنجاز العمل الذى وكل إليه.

من هذه الطرق الأربع مـا هو سهل موفـور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الإسراع المطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر فى القتال الحاسم بين المسلمين والرومان..

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلأ، ولكنه بعيد يطول السير فيه..

ومنها مـا هو وعر قليل الماء والكلأ مخـيف غير مطروق، أو كمـا قال الدليل الذى سـأله خـالد: "إنك لن تطيق ذلك بالخـيل والأثقـال. والله إن الراكب المفرد ليـخافـها على نفسـه، وما يسلكها والأثـقال. والله إن الراكب المفرد لـيخافـها على نفسه، ومـا يسلكها إلا مـغرور[1]. إنها لخـمس ليال جياد[2] لا يصاب فيها ماء مع مضلتها.."[3].

وأيسـر شىء على القـارئ الذى عـرف خالـدا أن يعلم أى هذه الطرق يسلكه خالد.. فـما هو بسالك حيث سـألك إلا الطريق الذى هو أحوج إلى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضاء، وأبعدها جميعا أن يتوقع العدو هجوما منه، فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصـعبها وأقصرها، وهو الذى خوفه الأدلاء منه، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائى - ولا أحد

---

(١) معرور: فى الطبرى (إلا مغررا) أى مـعرضا للخطر والهلاك. وهى منصوبة على الحال، أى (وما يسلكهـا الراكب إلا وهو عرضة للهـلاك)، مشتقـة من "الغرر" بفتحـتين، أى الخطر.

(٢) جياد: يريد: (شديدة الوطاة).

(٣) مع مضلتها: يريد أنها - بالإضافة إلى خلوها من الماء - فإن السائر يضل فيها.

يعنى غناءه فى السير بتلك المفازة المهلكة وإن كان يومئذ من حسر النظر[١] كالمكفوف الضرير.

"يحك إنه والله إن لى بد من ذلك[٢]" . . إن القوة[٣] تأتى على قدر النية، وإن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله".

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك: أكثروا من الماء. من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل، فإنه المهالك إلا ما دفع الله. .

ثم قال لخالد: "أبغنى[٤] عشرين جزورا[٥] عظاما سبانا مسان[٦] فأنا هبهن فظمأهن حتى إذا أجهدن عطشا أوردهن[٧] فشربن، حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن[٨] ثم كعمهن[٩] لئلا يجتررن[١٠] . .

وأشار على خالد أن يقتط[١١] أربعا من هذه الجزور كلما نزل منزلا ليسقى الخيل، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء. ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة. . فقال له خالد: ويحك يا رافع. ما عند؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج[١٢] فى موضع كان يعهدها فيه،

---

(١) حسر النظر: البصر الحسير: الكليل الضعيف.

(٢) أن لى بد من ذلك: (إن نافية، أى: لابد من ذلك.

(٣) فى رواية الطبرى (أن المعونة تأتى على قدر النية). (٤) أبغنى: أطلب لى.

(٥) الجزور: الناقة التى تنحر، ومنها اشتق (الجزار).

(٦) مسان: (بتشديد النون) الإبل الكبار، جمع مسن).

(٧) أوردهن: جعلهن يردن الماء للشرب.

(٨) المشافر: جمع مشفر (بكسر الميم): شفلة البعير.

(٩) كعمهن: شد أفواهها بالكعامة، وهى كمامة توضع على فم البعير لئلا يعض أو يأكل.

(١٠) يجترون: الاجترار: إرجاع ما فى الجوف من طعام.

(١١) يقتط: يقال (اقتط الشىء) إذا نحره فاعتصر ماءه وصفاه.

(١٢) ضرب من الشجر كثير الشوك.

ويعهد فيه الماء على مقربة منها. فلم يجدوها. فصاح الرجل بالويل، واسترجع[1] قائلا: هلكتم والله إذن وهلكت، لا أبالكم. انظروا انظروا، فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذار قد بقى منها وقطع سائرها. فكبروا فرحا وشكرا، وحفروا فى أصلها، فنبع لهم الماء، فشربوا ونجو من هذا الخطر الأليم الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء وفى ذلك يقول أبو أحيحة القرشى:

لله عينا رافع أنى أهتدى	فى مهمة مشتبه إلى سوى[2]
والعين منه قد تغشاها	معصوبة كأنها ملأى ثرى[3]
فهو يرى بقلبه ما لا يرى	من الصوى تترى له بعد الصوى[4]
فوز من قراقر إلى سوى	والسير زعزاع يومين فيما فيه ونى[5]
خمس إذا ماسارها الجيش بكى	فى اليوم يومين رواحًا وسرى[6]
ما سارها من قبله أنس يرى	هذا لعمرى رافع هو الهدى

وساء صحت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شىء من توسع الخيال فالطريق الذى سلكه خالد معروف، والقدرة عليه هى موضع العبرة والتأمل فى هذا المقام. أما نحن فالذى نراه خالدا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الإبل

(١) استرجع: قال (أنا لله وإنا إليه راجعون).

(٢) قراقر وسوى: قراقر: ماء لبنى كلب، وسوى: ماء لبهراء، وبينهما مسيرة خمس ليال. والمهمة المشتبه: المغادرة التى ضل فيها السائر إذ تشتبه مسالكها وتلتبس عليه.

(٣) سبق القول أن الدليل (رافع بن عميرة) كان حسير النظر كالمكفوف الضرير، ويقال إنه كان يشكو ومدا فى عينيه، ولذلك يقول الشاعر أن عينه معصوبة كانها مملوءة بالتراب.

(٤) الصوى: جمع صوة (بضم الصاد وتشديد الواو المفتوحة) وهى ما يتعصب من الحجارة ليستدل به على الطريق. و (تترى) أى متتابعة.

(٥) فوز: سار فى المفازة، والزعزاع: الشديد، وونى: ضعف وتراخى.

(٦) الخمس: من الفلوات: ما بعد ملوها حتى يكون ورود الإبل فى اليوم الخامس.

وهى لا تجتهد من الظمأ إلا فى أيام، وأن الإبل لا تخزن الماء فى جوفها وإن لم تخبره دون أن ينصرف منها، وأن عشرين جزورا تمتلئ كروشها بالماء لا تسقى الخيل فى الجيش كله وعدته عشرة آلاف. فلابد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة إلى التخفف إلى الإقدام..

والأمر الذى لاشك فيه بعد هذا كله أن خالدا سار بجيشه - وعدته عشرة آلاف - من عين التمر إلى قراقر، ثم من قراقر إلى سوى، وبينهما تلك المفازة المهلكة، ثم إلى تدمر، فالغوطة فبصرى[1]، فقطع هذه المسافة فى ثمانية عشر يوما، لأنه كما قال الشاعر كان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد..

"فى اليوم يومين رواحا وسرى.."

خرج من الحيرة فى أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة، وطوى تلك المسافة فى تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح[2] والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار...

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين فى الشام تشرع فى خطة جديدة للتراجع إلى الجنوب، وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة، فى جمع واحد ينهض لها[3] ويحول دون الإحداق بكل جيش منها على انفراد.

وكان الخليفة قد سيرها - بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة - مع أربعة من كبار القواد فى طرق مختلفة إلى وجهات متعددة فسير يزيد بن أبى سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى دمشق، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد إلى الأردن، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا إلى فلسطين، وسير أبا عبيدة بن الجراح على

---

(١) انظر الخريطة. (٢) المسالح: سبق تفسيرها. ص١٤٠.

(٣) ينهض لها: يملك القدرة على مواجهتها والتصدى لها.

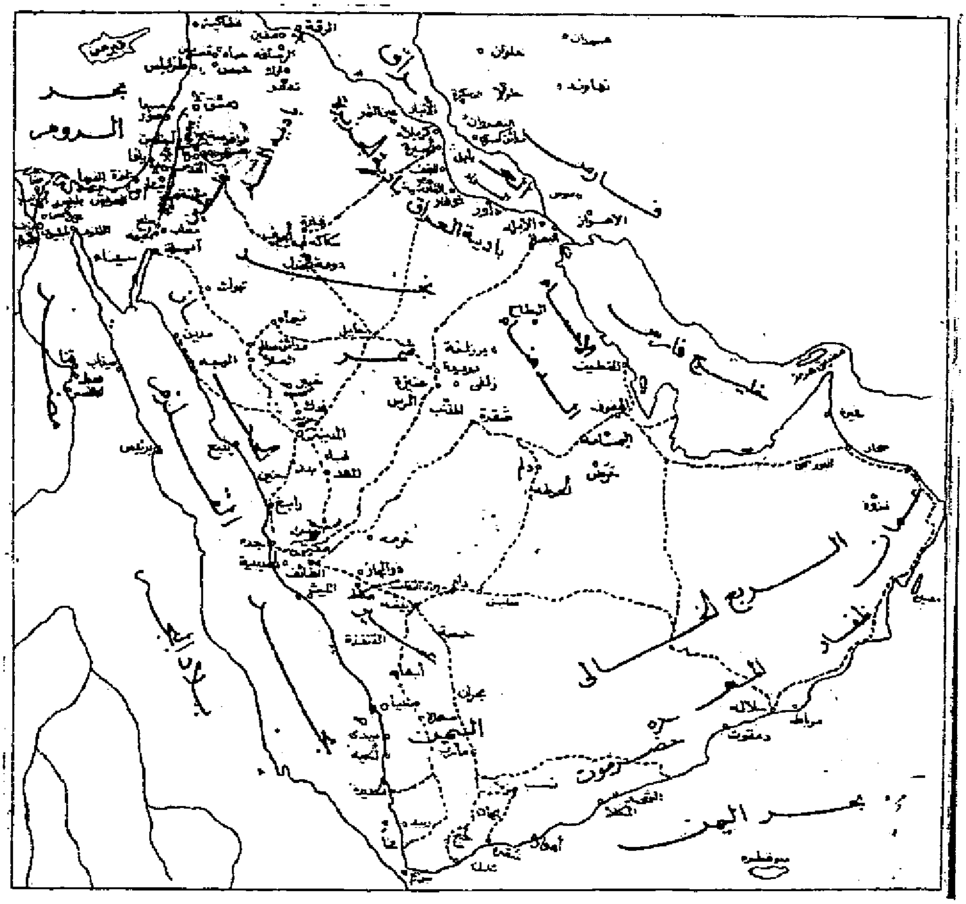

أشهر المدن العربية والمواقع الحربية

التى خاضها خالد بن الوليد فى صدر الإسلام

رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى الجابية، وأمدهم بعكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير ليحمى ظهور من يحتاج منهم إلى الحماية ويسرع بالنجدة إلى من يطلب منهم المعونة.

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش فى طرائقها ووجهاتها، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة، ثم رغبة الخليفة فى تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد إذا أوغل فى البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد، فإن الجيوش الأربعة يكون كل منها مددا لصاحبه، ومانعا للالتفاف به، أو منقذا له من الالتفاف إذا وقع فجأة. وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية فى مواقع البلاد الداخلية، إذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم، واطمأنوا إلى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف، وهى حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة، وزادهم اطمئنان أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهى حملة خالد بن سعيد، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع فى روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين فى وقت واحد. فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش فى زحفها إلى الشام أقرب إلى توزيع العمل والإسراع فيه، فإن تغير الموقف وعمد الرومان إلى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون فى مقابلة هذه الطوارئ، كما أوصاهم بالرجوع إليه.

وقد نجحت هذه الجيوش فى وجهاتها، وتقدم بعضها إلى دمشق وبعضها إلى حمص، وأوغل بعضها إلى فلسطين.

ثم نمى إليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير فى أنطاكية، وجيش آخر فى جوار بيت المقدس، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض

المؤرخين مائتين وأربعين ألفا، وعدة الجيش الثاني سبعين ألفا أو نحو ذلك، ولو نزلنا بعدة الجيشين إلى النصف حسبانا[1] للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشىء القليل، لأنه يربى على ثلاثة أضعاف الجيش العربى كله بعد قدوم جيش خالد إليه، ولم يرتفع به أحد إلى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير..

فتشاور القواد فيما يصنعون، فاستقر لهم رأيهم على التراجع إلى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم متباعدون متفرقون كل منهم فى بضعة آلاف.

ولعلهم يصحبون فى تراجعهم أقرب إلى الأمن إذا حاربوا وظهورهم إلى الصحراء، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها فى أعقاب جيش كبير أو صغير.

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع إلى الجنوب، فمنهم من يقول إنه أبو سفيان بن حرب، ومنهم من يقول إنه عمرو ابن العاص. وهذا القول الأخير أدنى إلى الواقع لأن عمروا كان يتراجع فى الجنوب قبل أن تصل الجيوش الأخرى إليه، وكان من الموافق لخططه أن توافيه الأمداد فى ميدانه بفلسطين.

وأيًا كان صاحب الرأى الأول فى هذا فقد تم التراجع بإقرار الخليفة، وكان شعوره بحرج المسلمين فى أماكنهم هو الباعث له أن يستدعى خالدا من العراق إلى الشام. فكتب لقواده بالشام يقول: "اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤت

(١) حسبانا: الحسبان (بضم الحاء) العد، والتدبير الدقيق، قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان).

العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا م تلقاء الذنوب. فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه".

ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى الشام. ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر فى "أجنادين" بالجنوب. لأن البدء بأصغر القوتين وإخلاء الجنوب قبل الانتقال إلى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين، ولأن معركة "أجنادين" لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد فى صعيد واحد. ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى فى اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان فى فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير فى اليرموك.

وعلى أية حال هزم الروم فى "أجنادين"، وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين فى اليرموك، على اختلاف كثير فى التواريخ، واتفاق فى تصوير خطة القتال.

ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء.

فالجيش الرومانى كان أوفر عددا وأكمل عده بغير خلاف، ولكنه خليط من عناصر عدة، منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى، وقد يظن لأول وهلة أنه امتاز بالنظام والخطط الفنيه على أعدائه، ولكنه فى الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح إذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه. لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون على ديدنهم(١)، والجنود

---

(١) ديدنهم: عادتهم ودأبهم.

النظامـيـين يحـاربون على ديدن آخـر، وتعوقـهم العـدد الكثـيـرة والشكك السابغة[1] التى حسـبت من مزاياهم، فـهى إلى النقص هنا أقرب مـنها إلى المزية.

وقد أثيرت فيهـم حمية الدين، ولكنهم ثارا لهما متشككيـن متفرقين، وجعلتم حـماستـهم الدينية يترقـبون من الله عقـابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤساءهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان. فحمية الدين تثيـرهم من ناحيـة وتضيرهم مـن ناحية، وليـست هى من قوة اليـقين المكين..

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع إلى قيادة واحـدة، وفى صدورهم من حميـة القتال كل ما يحفـز القلب الإنسانى إلى الثبـات والاستـبسـال. غيرة على الديـن وغيرة على العـرض. وناهيك بالغيرتين، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم فى الدنيا إذا كتب له الفلاح، وكفى بإغراء النعيمين. كان فى جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية: بنت أبى بكر، وأم مـعاوية، وزوج عكرمـة بن أبى جـهل، وعقـائل[2] أناس من الجند والقادة. وقد أمرهـن أبو عبيدة قبل المعركة "أن يأخـذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجـارة بين أيديهن، فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه، وإن رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحـجارتهن، ورفعن إليه أولادهـن وقلن له: "قاتل عن أهلك وعن الإسلام". ولم يقنع خـالد بهذا بل قـال لهن: يا نساء المسلمـين: أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه.

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القـوى وفكر حقا فى عـرض الصلح على المسلمـين، وقال لبطـانته وذوى شـوراه: "لأن تعطوهم

(١) الشكك السابغة: ملابس الحرب الفضفاضة (سبق تفسيرها).

(٢) العقائل: جمع عقاية، وهى السيدة المحصنة، والزوجة الكريمة.

نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يبلغوكم على الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم"، ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه.

أما المسلمون فالصلح الذى فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم. الإسلام أو الجزية، فإن لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف.

وقد أفادهم عرض هذه الشرط قوة على قوة، وزادهم أن نفوس أعدائهم مهابة على مهابة. فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور - أخى القيصر - حسب هذا أنه لهم بالبذخ والثراء، ويكسر نفسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم. فأقام لهم سرداقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه.. فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين: "إن ديننا يمنعنا أن تقترش الحرير والديباج".

فهالوه بزدهم أكثر مما هالهم بترفيه.. وأعسر شيء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الإيمان أنهم - وهم الغارقون فى المناعم واللذات - يقاتلون فى سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم فى المناعم واللذات، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية.

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التى هم مقبلون عليها: هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك ريب. وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا فى مضير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية. فإن هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة، ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته فى بلاده الآسيوية والأوربية، وإن هزيمة الجيش العربى معناها هزيمة الجيش الأكبر الذى لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة، وقد تغرى القيصر الرومانى بإرسال قبائل الشام فى أعقاب المسلمين إلى الحجاز والجزيرة العربية، ولا يبعد

أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الإسلام ممن لا تزال لهم ترات[1] تعلى فى حنايا الصدور..

فاستعد الفريقان غاية ما فى الوسع من استعداد.

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما، لأنه يوافق طلبة[2] القيصر من مكان "واسع العطن، واسع المطرد، وضيق المهرب[3]" ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه محصور بين النهر والبحيرة والوادى وجيش المسلمين. أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم: "أيها الناى، أبشروا.. حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير".. تحاجز الجيشان أشهرا لا يشتبكان إلى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة.

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه، وكلاهما قد عبا طاقته من سلاح الأيدى، ولم يزل يعبئ طاقته من سلاح النفوس: سلاح العقيدة والفداء.

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة، ويهونون على أتباعهم بذل الأرواح فى سليل الملة والدولة والمجد القديم.

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه، على العظات يذمرون[4] بها القلوب، وجعل وراءهم حرسا من الأعراض[5] هو أقوى الحراس بعد الإيمان..

---

(١) ترات: جمع ترة وهى الثأر. (٢) الطلبة: (بكسر اللام) الشيء المطلوب.

(٣) العطن: مبرك الإبل عند الماء، والمراد (واسع الإرجاء)، والمطرد: المذهب، أو مكان الطراد، وهو أن يحمل الفرسان بعضهم على بعض فى الحرب.

(٤) يذمرون: يستثيرون.

(٥) الأعراض: يشير إلى النساء اللائى وقفن خلف الصفوف، فالجيش يحمى عرضه إذ يذود عن النساء.

ثم كثرت الحركة أياما فى جيش الروم فعلهم القادة المسلون أنهم مقتربون من الهجوم، ولم يشأ خالد أن تبتدئ المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد فى نظام واحد. فصرف همه الأول إلى تنظيم الفرق جميعا فى تعبئة واحدة يقودها رجل واحد، ووجد من زملائه قلوبا مصغية فأجابوه إلى ما دعاهم إليه.

قال لهم ابتداء القتال: "هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى: أخلصوا جهادكم[(١)] وأرضوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون[(٢)]، فإن ذلك لا يجمل ولا ينبغى.. وإن من وراءكم[(٣)] لو يعلم حال بينكم وبين هذا. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى".

ثم قال وقد سألوه رأيه: "إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم[(٤)]، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم؟ فالله الله. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم[(٥)] عند الله ولا عند خليفة رسول الله.. هلموا.. فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم تفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور[(٦)] الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد، حتى يأمر كلكم، ودعونى إليكم[(٧)] اليوم".

---

(١) اخلصوا جهادكم: اجعلوه خالصا الله.

(٢) متساندون: يقال (خرج القوم متساندين) أى على رايات شتى، إذا خرج كل بنى أب على راية، ولم يجتمعوا على راية واحدة تحت أمير واحد.

(٣) من وراءكم: يعنى الخليفة وولاة الآمر فى المدينة.

(٤) مما قد غشيهم: من أحال التى ألمت لهم فى موقفهم الحرج.

(٥) ينقصكم: بقلل من شأنكم

(٦) فلنتعاور: تعاوروا الشيء: تداولوه، فيما بينهم.

(٧) اليكم: أتولى قيادتكم.

فأسندوا إليه قيادتهم يومهـا، وكان توحيده القيادة أول خطوة فى طريق النصر الحـاسم بمعركـة اليرمـوك.. ثم أسرع إلى تعـبئة قـواده وجنوده على الوضع الذى رآه ملائما للتـعبئة الرومانيـة، وهُو الوضع الملائم للحرب "فى العمق" كما يقول العسكريون فى هذه الأيام.

فأقام عمرو بن العـاص على الجناح الأيمن، ويزيد بن أبى سفيان على الجناح الأيسر، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب واتخذ مكانه فى كبه الجمع، ولجأ إلى طريقه التى اختارها لحـرب بنى حنيفة وهى طريقة الكراديس، لأنها أصلح الطرق للنفاذ فى الصفوف، وأدعـاها إلى النافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء.

وكـانت كل فرقـة من الميمنة أو القـلب أو الميسـرة تتألف من كـراديس عدة، على كل منها قائد معروف، ومنهم صاحبه القديم القعقاع، وزميله فى حرب اليمامة عكرمة بن أبى جـهل، وزميله فى دومة الجندل عياض بن غنم، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشريـن. وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها فى القلب، وعدته ثمانية عشر كردوسا، رئيسهم أبو عبيدة، وفيهم عكرمة والقعقاع.

وكان موضع الميمنة بحيث يستطـيع الالتفات بالجيش الرومانى إذا أمعن فى الهجوم، والإطبـاق عليه من القلب إذا ارتد إلى الوراء. وفرغ من التعـبئة فعمد إلى "القوة الأدبية" يوليها حـقها من عنايته الكبرى. وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة "الأنفال"، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه فى حـركاته. وجـماع[1] هذه العظات خطة عـمرو بن العاص حـيث قال: "غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واشـرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم

---

(١) جماع الشيء: بكسر الجيم، أو بضمها وتشديد الميم: مجتمع أصله، تقول (الخمر جماع الألم).

فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة[1] فثبوا فى وجـوههم وثبة الأسد، فو الذى يـرضى الصدق ويثيـب عليه، ويمـقت الكذب، ويجزى بالإحـسان إحسانا، لقد سمعت أن المسـلمين سيفتحونها كفرا كفـرا، وقصرا قصرا، فلا تهولتكم جـموعهم ولا عددهم، فـإنكم لو صدقتمـوهم الحملة تطايرا تطاير الجحول"[2].

وخطب مثله مـعاذ بن جبل وأبو سفـيان، وبرز القعقاع وعكـرمة قائدا المجنبة[3] فى القلب يرتجزان[4]، وأخيرا يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء فى حمارة القيظ[5] فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم.

ثم اشتبك الجيـشان على نحو لا يعلم تفصيله على التـحقيق، ولمنه بدأ كما تعودنا فى حـروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العـدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الإيمان والاعتصام بنيه الفداء.

فلما انكشف المسلمـون بعد الهجـمة الأولى ثابوا إلى عزمـاتهم بنخوة الإيمان ونخوة العرض والأنفة. فضرب النساء فى وجوه الخيل قائلات: "إلى أين حمـاة الإسلام وطلاب الشـهادة!"، وصاح عكرمـة كأنه يؤنب نفـسه: "قاتلت مـع رسول الله فى كل موطـن وأفر اليوم؟ من يبـايع على الموت؟" فبايعه أربعمـائة من الفرسان المغاوير[6] لا يقوم فى وجههـم قائم، وصدموا

---

(١) ركبوا أطراف الأسنة: كناية من الاقتراب والتأهب لاقتحام المعركة.

(٢) الجحول: جمع جـحل (بفتح الجيم) وهو اليعسوب (النحل) والنحل يطيـر فى جماعات كثيرة.

(٣) المجنبة: جناح الجيش، وللجيش مجنبتان يعنى ويسرى.

(٤) يرتجزان: ينشدان الرجز، وهو ضرب من الشعر.

(٥) السموم: الريح الحارة، والسافياء: التى تحمل ترابا كثيرا، وحمارة القيظ: شدته.

(٦) المغاوير: الشجعان.

الروم حتى صدورهم غير حافلين بما أصابهم، وقد قتل فى طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان، ولم ينج منهم قط إلا جريح مثخن بالجراح. وأفلحت الكرة الثانية، وتقهقر الروم..

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخذوا لها الطريق، ورجع المشاة إلى الخنادق فلحقهم بها المسلمون، ثم أحاطوا بهم من ورائهم، فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون فى هوة الواقوصة أو وادى الرقاد. وقيل إن موتاهم بالواقصة كانوا أكثر من قتلاهم فى حومة الوغى، لأنهم قدروا بثمانين ألفا سقطوا فى الوادى فرادى وجماعات. إذ كان بعضهم يقرنون[1] أنفسهم فى السلاسل كل عشرة فى سلسلة واحدة تثبيتا لأقدامهم وتيئيسا من الفرار. فإذا بالوجل يقل حديد السلاسل كما فل عزائمهم القلوب، وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا فى أماكنهم ينتظرون الموت. فكأنهم قد فروا قاعدين!

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن يودع الشام إلى عاصمة المتصدع وداعا - كما قال - ليس بعده لقاء.

* * *

(١) يقرنون: يشدون، وفى القرآن الكريم "وآخرين مقرنين بالأصفاد".